ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 02 (2021) ص: 83 – 96

# سرديات متخيل الموت في رواية انقطاعات الموت – رحلة من الشك إلى اليقين–

# *The narratives of the imagination of death in the novel of "Interruptions of Death" - A journey from doubt to certainty –*

دريسي سارة *
جامعة محمد لمين دباغين-سطيف (الجزائر)
saradrissi707@gmail.com

بركان سليم
جامعة محمد لمين دباغين-سطيف (الجزائر)
Salimborkane@yahoo.fr

**معلومات المقال**

تاريخ الإرسال:
2021 /04 /26
تاريخ القبول:
2021 /06 /03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الموت
- ✓ المتخيل
- ✓ الرواية
- ✓ تمثلات
- ✓ السردية

**الملخص:**

شغل موضوع الموت فكر الإنسان منذ القدم، ففكرة غياب الشخص الذي كان يتنفس أمامك ومغادرته لهذا العالم عادة ما تكون غير متقبلة أو غير مفهومة البتة، هذا الأمر ألهم مخيلة العديد من الروائيين، الذين استخدموا الموت كأداة أدبية لترتيب أهم الأفكار المتعلقة بالموت ومعانيه.

تهدف هذه الورقة البحثية للكشف عن مدى الإمكانيات العظيمة التي يتيحها لنا متخيل الموت في الرواية، لفهم وتفسير هذه الظاهرة المعقدة والمتعددة الجوانب، وكذا استخراج أهم تمثلاتها باعتبارها واقعا ثابتا لا مفر منه، في محاولة لتعزيز وتحسين الفهم الأنثروبولوجي المتعلق بالموت.

***Article info***

*Received*
*26/04/2021*
*Accepted*
*03/06/2021*

**Keywords:**
- ✓ *Death*
- ✓ *Fiction*
- ✓ *Novel*
- ✓ *Narrative*
- ✓ *Representations*

***Abstract :***

*The subject of death has been a matter of concern for humans since ancient times. The idea of the absence of the person who was breathing in front of you and his departure from this world is often not easily accepted nor comprehensible. This matter inspired many novelists, who used death as a literary tool to arrange the most important ideas about death and its meanings. This paper aims at revealing the extent of the great possibilities that the imagining of death in novels provides. It also aims at understanding and explaining this complex and multifaceted phenomenon, as well as extracting its most important representations as a constant and inevitable reality, in an attempt to enhance and improve anthropological understanding of death.*

* المؤلف المرسل: دريسي سارة

**مقدمة**

الموت، موضوع يغتال في حضرته الإيمان وتولد من رحمه التساؤلات والشكوك، ويتيه الفكر الإنساني في متاهاته المعتمة. فعند ذكره تتداخل الأفكار والرؤى وتستحضر الذكريات والحكايات، وتقفز للذهن جملة من التخيلات المبهمة والتأملات القاتمة. الموت هو الحاضر المتخفي، المترصد للإنسان في كل زمان ومكان، هو النهاية وهوة العدم للبعض وفي الوقت نفسه، هو النهاية ثم البداية لمرحلة الخلود الأبدي للبعض الآخر.

الإنسان بما هو معني بالموت، وكيف لا يكون وعمره في الحياة لا يكاد يتجاوز بضع سنين معدودات، وكيف لا يكون والموت هو كابوس البشرية الأعظم والتعقيد الأكبر فيها؛ لذا نراه يبتكر في كل مرة يجد نفسه فيها مواجها للموت — سواء هو بحد ذاته أو أحد معارفه–طرقا لتكييف مشاعره مع أكبر مخاوفه وأفزاعه سواء كان ذلك بمحض إرادته أو لاإراديا عن طريق اللاشعور في عقله الباطن. وعلى إثر ذلك اعتنت جميع العلوم بمسألة الموت وبحثت فيها بإسهاب وعمق كبيرين، مختلف الديانات عالجت هذا الوجود المتناقض، وكذا فعلت العلوم المادية والفلسفة والشعر والأدب ... كلٌ حاول تبسيط مفهومه بشكل أو بآخر، لجعل العقل البشري يتقبل هذا المصير المحتوم ويتصالح معه فقط.

حاول النسق الروائي معالجة موضوع الموت بأسلوب يثير خيال القارئ وفضوله وبطريقة هي أشبه لدعوة لإعادة التفكير في أهم الأسئلة الوجودية، لأن إثارة هذا النوع من الأسئلة هو ما يحرك دولاب الحياة ويقود الإنسان لإيجاد الحلول المناسبة لبناء مجتمعات المستقبل .

ماذا لو ... ؟ أو ماذا سيحدث لو ... ؟، سؤال بسيط جدا فتح لنا به خوزيه ساراماغو "José Saramago " باب الخيال الواسع على مصراعيه ليلج بنا عالم الموت بأسلوب وإن كان خياليا فإنه لا ينافي ما يجول في أنفسنا من مخاوف حول تعقيدات حياتنا اليومية، فيرصد لنا بشيء من المتعة والتشويق الرؤى الجديدة التي تحاك بسبب معضلاتنا واستفهاماتنا اللامتناهية عن هذا الوجود. ففي رواية "الطوافة الحجرية" يتساءل ساراماغو: «ماذا سيحدث إذا انفصلت شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) عن القارة الأوروبية وطافت في المحيط الأطلسي؟» وعلى نفس النسق الاستفهامي، يطرح في رائعته "العمى" سؤالا خياليا آخر: «ماذا لو أصبح كل شخص في المدينة أعمى فجأة؟» ومثل العديد من أفضل روايته التي يدعمها الخيال والسخرية، جاءت روايته "انقطاعات الموت" وعلى النمط نفسه لتعري النفس البشرية وتضعها وجها لوجه أمام أكبر مخاوفها: الموت، فكان سؤاله هذه المرة: «ماذا سيحدث لو اختفى الموت؟»

سنحاول في هذا العرض التطرق لبعض الاعتبارات المتعلقة بالموت وعلاقة المتخيل بهذا الأخير في محاولة لفهم كيفية تصوير الموت في الأدب وشرح ما تثيره هذه الصور الأدبية من مشاعر ومواقف سواء بالنسبة للمؤلفين أو القراء؛ كما سنتطرق لدراسة الأشكال التي تجسد عليها متخيل الموت في عدة روايات عربية وغربية، منطلقين من الإشكالية الجوهرية: كيف تجسد متخيل الموت في النسق الروائي؟ وما المواقف التي تبناها الأدباء والقراء اتجاه الموت؟، ساقنا هذا لطرح جملة من التساؤلات لعل أهمها :

–كيف يصنع المبدعون صورا أدبية للموت؟

–كيف تمكن النسق الروائي من تكييف المخاوف الإنسانية اتجاه الموت؟

–كيف تمثل الموت في رواية "انقطاعات الموت" للروائي خوزيه ساراماغو؟

ولتوضيح هذه التساؤلات اعتمدنا على المنهج البنيوي كونه الأنسب لدراستنا. ووفقا لهذا ارتأينا أن نقسم مقالنا إلى فصلين: فكان الفصل الأول تنظيري، وضح مفهوم المتخيل عند الغرب والعرب وتبلورات الموت عند الأدباء وكيف تجسد الموت عبر الشخوص. أما الفصل الثاني فكان بمثابة دراسة تطبيقية لمتخيل الموت في رواية "انقطاعات الموت" لخوزيه ساراماغو.

## 1. المسار المفهومي

### 1.1. المتخيل

تكتسي النصوص خصوصيتها ضمن نظرتها الخاصة للأشياء التي تشغلها، فتصوغ المضامين في قوالب فكرية تدل على وجهة نظر كاتبها، تجعلنا نُسائل متنها: كيف عبر الكاتب عن فكرته؟ وهذا ما يضعنا أمام المتخيل الذي بلور العديد من الأعمال وأكسبها الخلود من خلال ما أضافه من رونق وغموض حول استفهامية المقاصد، دُعيَّ إليها المتلقي /القارئ للغوص داخلها، فالمتخيل حسب النظرة الغربية استعراضا لقول لوردي بأنه «مرتبط بشكل حميمي بالعقل والمعرفة الأمر الذي يعني أنه لا توجد معرفة تخيلية صرفة، لأن كل معرفة هي معرفة عقلية في بنيتها أو طبيعتها، وما المتخيل إلا وسيلة لتفعيل وتحين تلك الماهية» (آمنة، 2011، صفحة 19) أي أن المتخيل له علاقة تكاملية، تلازمية مع العقل، مرتبط بالعقل لإنتاج المعرفة، لأن هذه الأخيرة تكتسب بالفهم، فهو يدعونا لاستيعاب ما نلمسه عقليا لنطلق العنان لخيالنا الذي يرسم أبعاد تجسد معرفة ما لحقيقة وجب إدراكها. ويرى جون بوركس"Jean Borax "المتخيل بأنه «المسار الذي يتماثل ويتشاكل فيه تمثيل الموضوع بواسطة الضروريات الغريزية للذات، والذي تفسر فيه بالمقابل التمثلات الذاتية بواسطة التكيفات السابقة للذات في الوسط الموضوعي» (الإدريسي، 2005، صفحة 139) بمعنى أنه الوعاء الذي يتمازج فيه المحيط الموضوعي مع الفطرة الإنسانية للذات مما ينتج لنا الرغبات المطروحة .

وقد تبلور موضوع المتخيل عند الكثير من الكتاب والنقاد العرب، كل وضع لمسته في تقديمه حسب دراساته وأبحاثه، فقدمه جابر عصفور على أنه «عملية إيهام موجهة تهدف إلى إثارة المتلقي(....)، يتم الربط على مستوى اللاوعي من المتلقي بين الخبرات المختزنة والصور المخيلة، فتحدث الإثارة المقصودة، ويلج المتلقي إلى عالم الايهام» (بلعلى، 1982، الصفحات 296-297) يوضح بهذا أن المتخيل يستثير القارئ /المتلقي ليوهمه بواقعية الحدث، ويجعله يعايش أحداث النص ويتفاعل معه، هذا ما يزيد العمل أكثر أهمية، في حين اعتبر حسين خمري ماهية المتخيل بأنه «بناء ذهني، أي أنه إنتاج فكري بالدرجة الأولى، أي ليس انتاجا ماديا» (خمري، 2002، صفحة 43) أي إنتاج عقلي وليس مادي، ينطلق من عقل الكاتب وكيف يجسدها حسب نظرته، فحسب خمري «المتخيل يحيل على الواقع ويستند إليه» (خمري، 2002، صفحة 43) أي فكرة تعبيرية خاضعة لواقعها تشير إليه وترتكز عليه، أما مُحَّد رمصيص فهو أيضا وضح المتخيل على أن له «قدرة هائلة على استدعاء المكبوت والمعطل، وتعرية رصانة الواقع المزعومة» (بوزفور، 2012، صفحة 10) أي أنه يملك القدرة على إظهار وعرض مكبوتات النفس الخفية وتعرية واقعية الأشياء وتحريك الثوابت المدعاة.

يلاحظ في هذا السياق، دخول المتخيل قيد التنظير في الدراسات العربية وبهذا يلامس حتى أعمالهم التطبيقية إن كانت أدبا أو مسرحا أو نصا تلفزيونيا، فالمتخيل يمنح الوقائع أبعادا مختلفة حسب المقاصد في الطرح مما يضيف عمقا للفن بأشكاله، فإن «كل فلذة من الأدب تكتسب أدبيتها بقدر ما تحتل من رقعة الخيال، فأشكال الأدب في حقيقة الأمر، إنما هي قطع في خيمة التخيل قد تطول أو تقصر، ترتفع أو تنخفض، تتجلى في ألوان بهيجة أو باهتة لكنها كي تصبح أدبا، لابد من تغطية سطح الواقع» (فضل، 1996، صفحة المقدمة) أي يستند النص إلى واقعه ويكسب أدبيته من غناه الخيالي، فالخيال هو صانع هذا المتخيل ومبلور أشكاله، فلكل منا نظرته الخاصة في رؤية الأشياء وتلوينها بخياله الجامح مما يقدم لنا أجواء النص المتخيل في أمكنته وأزمنته وأحداثه وشخصياته وحتى أفكاره

الفلسفية في طرح المواضيع مما تجعلنا نشارك المبدع في عمله محاولين الغوص في فكره عبر لغته المقدمة، لنكون أكثر استيعابا لهذا العمل وهذا بالنسبة للقارئ العادي، أما القارئ الحذق فهو يعيد قراءة النص بإضافة متخيلاته على ما نلقاه من صاحب العمل، أي يفهم مقاصد الرسالة المشفرة وإعادة ترجمتها وصياغتها وفق ايديولوجيته الخاصة، مفاده أن المتخيل تماثل للواقع.

### 2.1. الموت

يعتبر الموت لحد الآن أكبر أسرار هذا الوجود ومصيرا لا مناص منه، كان لزاما على بني البشر مواجهته بطريقة أو بأخرى؛ فكانت الكتابة عنه أهم الطرق نجاعة واستعمالا لفك شيفرة هذا اللغز الغامض. لقد أصبح أدب الموت بمثابة مختبر أدبي، أين يتم تجسيد الموت على شخوص خيالية ذات أجساد فيزيولوجية ونفسية، وبالتالي قدمت الكتابة عن الموت في جميع المجالات الراحة لمن يعانون في صمت بسبب تجاربهم مع الموت، وكذا مهربا لأي شخص يرغب في قبول النهاية ومحاولة نسيان ولو لحظة، حقيقة العالم الذي يعيشون فيه. وهكذا تم ترويض كلمة الموت وتم تسخيرها لنقل المعرفة من جيل لآخر .

### 3.1. الموت في النسق الروائي

أن تموت فهذه إرادة الخالق، أما أن يموت بطل أو شخصية ما داخل العمل الفني فهي إرادة المبدع الذي يستدرجنا داخل عمله، ثم يكسر توقعاتنا حول حبكته بموت شخوص وغياب أشياء. لقد تفنن مبدعو الأدب في قتل شخصياتهم الأدبية ورسم معالم وطرق منيتهم، كل واحد منهم شكل الموت بفنيته، بلغته وحسب فكره. فقد تحركت العديد من الأقلام لتصوير اليوم الأخير حسب اعتقاداتهم ونظرتهم العميقة لهذا المفهوم الحتمي الذي تباين بين الأعمال الروائية وتبلور بأشكال متعددة، فمنهم من استوحاه من قصص حياته الخاصة وهناك من يتفنن فيه للتأثير الأدبي كذريعة للأسلوب الجميل داخل الهياكل السردية .

قدمت لنا الروائية فرجينيا وولف "Virginia Woolf" الموت في الفقرة الأخيرة لروايتها "الأمواج "The waves" "أين تفننت في صنع لوحة النهاية بقولها: «وفيّ أيضا تقوم الموجة، إنها تقوّس ظهرها، إني أنتبه مرة أخرى إلى رغبة جديدة، شيء يقوم تحتي كالجواد الشموس، يهمزه ممتطيه أولا ثم يشد عليه العنان. أي عدو الآن نتصوره يتقدم ضدنا، يا هذا الذي أمتطيه الآن، إذ نقف ننبش بحوافرنا هذا الجزء الصغير من الرصيف؟ إنه الموت. الموت هو العدو. إنه الموت الذي ضده أركب المخاطر برمحي مسددا وشعري يتطاير إلى الوراء كشعر شاب فتي، كشعر بيرسيفال، حين خبّ خببه في الهند. إني أهمز المهاميز في جوادي. ضدك سأرمي بنفسي، غير مهزوم وغير مستسلم، يا موت!» (وولف، 2009، صفحة 271) وضعته في قالب مجازي حين شبهت روحها بالموجة التي تتوّلد في حضن البحر، ترتفع هذه الموجة وتولد من رحمها رغبة كاسحة تتجسد على شكل حصان جامح وثائر، تمتطيه فرجينيا لتواجه عدوها الأبدي، الموت. اختيار فرجينيا وولف لماء البحر للتعبير عن لحظة النهاية لم يكن اختيارا مجازيا عبثيا، استعملته فقط لإضفاء لمسة فنية لمتنها السردي؛ فلطالما ربطت الميثولوجيا الغربية الموت بماء المحيطات أو البحار أو الأنهار معتبرة هذا العنصر الطبيعي مدخلا لبعث الحياة من جديد. نجد مثلا في الطقوس المقدسة للشرق القديم، ابن الماء الإله دوموزي الذي لطالما اقترن اسمه بالخصوبة والموت معا فقد اعتبره الناس قديما «مجدد طاقة الحياة وحافظ قوى الخصوبة والنماء، هو في الوقت نفسه قاهر الموت الذي حرر نفسه من قوى العالم الأسفل، من هنا فإنه الإله الوحيد القادر على إعطاء الإنسان أملاً في تحقيق الخلود، والأخذ بيده، عبر برزخ الموت، نحو عالم آخر أكثر بهجة وسعادة من عالمه الأرضي» (محمود، 2017، صفحة 73) إذن فارتباط فكرة بعث الروح وتجديدها بالماء تعود جذورها للإنسان القديم. إن الصورة

الاستعراضية التي قدمتها لنا فرجينيا للموت ما هي إلا صورة مبلورة لرغبة إنسانية قديمة تتمثل في التغلب على الخوف من الموت ومواجهته بجمالية.

أما السيدة أجاثا كريستي فقد قتلت في كل أعمالها شخوصا وتجولت بحبكتها وراء الموت الذي حاكته في مؤامرات إجرامية، تعددت الوسائل لكن المصير واحد جثة هامدة تدور حولها الأحداث، وراء غموض الفقد، أو طريقة القتل. فكان من أعمالها التي تناولت الموت الإجرامي: القضية الغامضة في مدينة ستايلز، جثة في المكتبة، جريمة في قطار الشرق السريع، ثم لم يبقى منهم أحد وغيرهم؛ أين تمثل الموت بشكل عام عن طريق جرائم القتل أو الحوادث بأسلوب نمطي مماثل لأفلام هوليوود.

اختار الروسي تولستوي المرض ذريعة لموت ايفان في عمله "موت ايفان اليتش" حيث أطَّر الموت قصته السردية، متخيلا خطوات حياته وتفاصيل احتضاره في فراش المرض بصورة كاملة سلسة. حملت بنيته النصية خطاب الموت ومواجهته تدريجيا بشكل مباشر عبر رحلة ايفان في دراسته معنى الحياة واستحضارها في فراش مرضه بغير اهتمام ليتوافق مع الموت؛ فكانت أعظم لحظة في هذه الرائعة هي تلك اللحظة التي أدرك فيها إيفان أخيرا حقيقة دنو منيته، فكانت هذه الجزئية هي اللحظة الفارقة في حياته والمنعطف الذي بسببه ستتغير جميع الاعتقادات ليس بالنسبة لإيفان وحسب ولكن لنا جميعا. صور لنا تولستوي هذه الحقيقة ببراعة فذة عبر حوار داخلي بين إيفان ونفسه بقوله: «إنها ليست مسألة زائدة دودية أو كلى، بل مسألة حياة أو ... موت. نعم، كان ثمة حياة، والآن تنتهي، ولا أستطيع استيقافها. نعم، فلماذا أخدع نفسي؟ ألم يكن واضحا للجميع —ما عداي–أنني أموت ... بل يمكن أن يحدث في هذه اللحظة» (تولستوي، 2014، صفحة 72) بتحليل دقيق ومرهف، استطاع تولستوي أن يكشف أعماق الروح الإنسانية في اللحظة الفاصلة من الحياة، لحظة المواجهة مع المصير، فتمكن ببراعته الأدبية أن يلفت انتباهنا لذلك الشيء الذي نحاول جميعنا أن نتغافل عن ذكره، ففي النهاية كما قال إيفان: من الذي نحاول خداعه؟ أأنفسنا؟

تتغير من هذه النقطة مجريات القصة، ويبدأ الصراع الداخلي بين إيفان ونفسه، يبدأ البطل التساؤل عن ماهية الموت، فيخبرنا تولستوي على لسان بطل روايته: «كان هناك نور، هناك الآن ظلام. كنت هنا، والآن ذاهب إلى هناك! ... عندما لا أكون فماذا سيكون؟ لا شيء. ثم أين سأكون حينما لا يعود لي وجود؟ أهذا هو الموت؟ كلاّ لا أريد أن أموت!» (تولستوي، 2014، صفحة 72) بعد ذلك يسقط إيفان مستسلما أمام الحقيقة الصادمة: «ما الفائدة؟ لا فرق ... الموت. نعم، الموت، ولا أحد يعرف أو يتمنى أن يعرف الموت ... بالنسبة لهم، كل شيء سيان، لكنهم سيموتون أيضا! حمقى! أنا أولا، ثم هم في وقت لاحق» (تولستوي، 2014، صفحة 72) يصالح هنا تولستوي بين الموت وايفان ويتخيل الموت وصولا للنور الحقيقي أمام الزيف الذي شيدته الحياة. حاول الكاتب من خلال متنه السردي أن يدعونا لإعادة النظر في مفهومنا للمنية والنهاية، أراد منا أن ننتشل أنفسنا من تيار أفكارنا السابقة عن الموت والتي تحجب عنا المفهوم الحقيقي له وتدمر وعينا به. تولستوي عبر هذا الكم الهائل من الأسئلة الوجودية التي ضمنها في نصه، حاول استدراج القارئ وإقناعه بمحاولة إعادة بناء الذات الإنسانية بشكل سليم يسمح لها بتقبل الموت مما يساهم في صنع أهداف حقيقية للحياة .

وتبعا لهذه المنجزات الأدبية ظهر العبثي ألبير كامو بنظرته الخاصة ليقدم لنا الموت في أعماله داخل فلسفته العبثية التي تطرح العديد من الأسئلة المشككة في هذا الوجود، فتعددت أوجه الموت في روايته "الطاعون" على شكل مرض خطير تسلط على الجميع، واجهه الكل حسب معتقداتهم الإيمانية، وتخبطوا في أزمنة موتهم مواجهين المصير، وبالنسبة لعمله " الموت السعيد " فالبطل بياتريس وجد سعادته في موته بعد رحلته العبثية، صور فيها كامو المنية بشيء من الانتباه التي كتبها في فنية سردية، امتازت باللامبالاة بشكل لا منتهي وهذا ما

جسده بشكل كبير في روايته "الغريب" في ثلاثية الأحداث التي حملها المتن تتمحور حول الموت؛ بدايتها فقدان الأم، تتحول بقتل مورسو للرجل العربي، وتنتهي بحكم الإعدام لمورسو. قدم الموت في صورته الأولى على أنه قدر بسبب انقضاء الوقت في حياتها ولا دخل للإنسان فيه، وأوضح من خلال مورسو أن الموت لا حدث، هو أجل لا مفر منه معمم على الجميع، وتبعه حدث قتل العربي بطلقة نارية من قبل البطل، صوره على أنه أحد مؤامرات الطبيعة وتأثيراتها النفسية، فأضحى الموت عبثيا، مبررا الجريمة بأن تصرفات البشر في بعض الأحايين مشدوهة بقوة الطبيعة، ولم تختلف هيئة المنية في الحدث الثالث: حكم الإعدام على مورسو، كنقطة نهاية لحياته وختاما للعمل. رأى ألبير كامو أن علينا مواجهة موتنا بتقبله ضمن سلسة مصائرنا، فالموت في متخيل كامو هو اليقين في هذه الحياة العبثية؛ حتمي لاستمرار النظام الروتيني للبشر عبر العالم، الخضوع لروتين الحياة بكل عناية.

توزع الموت في رؤى خاصة للأديب العربي، فسال كثيرٌ حبر جورج سالم حول الموت في كل أعماله، فمثلا في روايته "حوار الصم"، صور الموت ككابوس يلاحق بطله، واصفا مراسيم الجنازة بكل تفصيلها مما يجعل القارئ أحد الراجلين وراء التابوت. أما في روايته "في المنفى"، فقد جعل القارئ يعايش الصراع النفسي خوفا من الموت كالذي عايشه "المعلم"، إذ وضح سالم من وراء أعماله عبثية الحياة أمام حقيقة الموت على لسان القاضي الذي حكم بالموت على المعلم في حواره الفلسفي عن معنى الحياة، فقال: «لا تحزن. لقد حكم عليك أن تأتي إلى هذه البلدة، ولست أنا ولا أنت اللذين أصدرا هذا الحكم، واليوم تحكم عليك البلدة بالموت، وليس لأحد دخل في ذلك ... ليست حياة الإنسان إلاّ فترة قصيرة يقضيها بين هذين الحكمين، وقد يرى بعض الناس أنهما حكمان ظالمان، وقد يذهب آخرون إلى أنهما حكمان عادلان، وقد لا تشعر فئة أخرى بهما أصلا»(سالم، 1962، الصفحات 99–100) وكأن الحياة مجرد حكم مطلق وسابق، حكم لا يد لنا فيه، تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، لذا علينا تقبل هذه الحقيقة وأن نختار عيشها كيفما شاءت الأقدار، ففي النهاية لا يهم ما إن كانت عادلة أم لا، فالأمر سيان بالنسبة لجورج سالم.

ولقد اختار أيمن العتوم الموت في كتابته الروائية، فجاءت روايته "تسعة عشر" لتسرد مصير طريق الموت بداية من صفحاته الأولى، واصفا مآلات الفقيد في العالم الثاني، دالا على الحياة بالفانية، لا خلود فيها موضحا بهذا بأن ما الحياة سوى امتحان له نهاية، فالموت مصير محتوم ويدعم فكرته في رواية "كلمة الله" التي قتل أبطالها بطرق مختلفة في نهاية الصفحات.

وكان للموت نبض لدى الأديب أدهم الشرقاوي في روايته "نبض"، إذ أضاف هذا الأخير لمسة رومانسية على الموت فكان الموت بالنسبة له مجرد امتداد للحب ونهاية العذاب الأبدي الذي يخلفه انفصال المحب عن حبيبته. وصف لنا معاناة البطل مع الفقد بقوله: «ماذا سأفعل على ظهر هذا الكوكب وحدي، مذ رحلت صارت الأرض مهجورة، كأنك ساكنتها الوحيدة، ويوم فتحت بابها وغادرت صارت فارغة!» (الشرقاوي، 2016، صفحة 244) فالموت حسب رأيه لا يوجع الموتى وإنما يوجع الأحياء، يولد وحشة تعتصر قلب المحب فتجعله يرغب في الموت من أجل وضع حد للألم. كما سخر من فكرة الخلود واعتبر الباحث عنها مجرد أحمق لا غير لأنّ «الخلود تمديد لأمد الفاجعة لا خلاصا منها» (الشرقاوي، 2016، صفحة 244) وهنا استحضر قصة جلجامش واعتبره مجرد بابلي غبي لأنه فكر في البحث عن نبتة الخلود بعد موت صديقه أنكيدو لا في حياته. لم يكتف أدهم من تصوير الموت عبر صفحات روايته فنراه هذه المرة يصفه بشيء من السخرية والتهكم إذ يقول: «مرهف هذا الموت الذي اختارك يا نبض! كنت دوما أتخيله جشعا، يأتي كوحش كاسر يخطف وجبته ويمضي، وكل همه أن يقتات... أما وقد تخيرك ... فعلي بغضي له ... لو كنت موتا لاخترتك!» (الشرقاوي، 2016، صفحة 242) لقد بلغ الحب من البطل لحبيبته نبض مبلغ لو أن الموت تجسد فيه لاختارها أيضا، فالموت أيضا يختار الأشياء الجميلة كما يختار الإنسان ما يعجبه. وفي موضع أخر ربط أدهم الموت بالتدين والحرب بقوله: «في الحرب يكتشف الإنسان مدى ضعفه،

ومدى هشاشة الحياة على هذه الأرض، وأنه من الممكن أن تضع رصاصة طائشة حتى حدا لحياته»(الشرقاوي، 2016، صفحة 75) فالحرب إذن تخلق نوعا من الموت العبثي الذي لا معنى له، تجعل الإنسان يدرك بسببها مدى هشاشة وعبثية هذه الحياة، ثم يكمل قائلا: «لطالما كان الموت نقطة ضعف الناس يا نبض، لأنهم يقفون أمامه عاجزين، لا يملكون سبيلا لردّه، ولكنه في السلم يأتي زائرا على استحياء، يأخذ كبار السن، ومن أكلتهم الأمراض، أو عندما تقع الحوادث، ولكن في الحرب يأتي فاجرا، صارخا، يخطف عائلة كاملة، أو حيا كاملا، يأخذ رضيعا قبل أمه، وصبيا قبل أبيه» (الشرقاوي، 2016، صفحة 75) هنا حاول أدهم الشرقاوي لفت انتباهنا نحو الموت الناجم عن الحروب، عن مدى قسوة هذا النوع وشدته على البشر لأنه يخطف المحبين فجأة دون سابق إنذار .

قدم الأدب تمثلات عديدة للموت بطرق متخيلة، فمنهم من أفرط في تفسيره بشكل جمالي، في حين فضل البعض الآخر إبادته أو استنكاره في أعمالهم؛ فكانت عملية السرد والوصف المتمحورة حول الموت بمثابة استنطاق لشيء لا مرئي. وعلى هذا الأساس خاض الأدباء تجربة جعل الموت كشخصية نصية تبلورت في وجهات نظر متعددة، تستند إلى التركيبة البيئية التي ولدت هذه النصوص الروائية، وتنبثق من إيمان الروائي.

## 2. سرديات متخيل الموت في رواية انقطاعات الموت لخوزيه ساراماغو

الموت هو هاجس الإنسان في الحياة وحتمية لا مفر منها، فماذا لو لم يمت أحد، بهذه الطريقة هُيكل الخطاب السردي في رواية "انقطاعات الموت"، أسس إبداعه على أغرب حادثة تقع للبشرية قاطبة والمتمثلة في توقف الموت عن القتل، محققا نبوءة الخلود. طرح السارد العديد من الأسئلة الفلسفية بأسلوب أدبي فريد يرتكز على الفنتازيا الصاعقة في تجسيد عوالم خيالية لرسم نظرته المتخيلة عن الموت ويقدمها حسب مفاهيمنا ودرجات وعينا للفكرة ذاتها.

يرينا النص عبر قصتين منفصلتين داخل عمل مفترض مختلق يوازي أحلام الخلود كيف يكشف اللثام عن مآلات الوجود الأزلي، بعدما قدم وجه المجتمع الذي يتحدث عنه، تكلم بعدها على انعكاسات الأزمة بعد "اختفاء الموت ". واستمرت غرابة الحدث وأزماته التي اكتسحت كل الميادين ليتحول المسار في القصة الثانية إلى هيكلة الموت في روح وجسد أنثوي تحمل برقية الموعد مع المنية، يرينا من خلالها أن الموت المفاجئ أهون من الانتظار.

صور المتن الروائي سوداوية الوضع المزري لوجه الحلم الذي تخيله الإنسان منذ وجوده، ألا وهو الخلود، وفي المقابل كشف عن عمق الجمال في الموت نفسه داخل واقعيته، هذا ما زاد في بطانة النص الروائي، كرؤية جديدة تكسر تاريخية النصوص المعهودة، فماذا لو علمت أنك خالد في هذا الوجود كيف يكون تصرفك إزاء الأشياء المحيطة بك؟ كيف سيكون العالم داخل هذه الفوضى باستئصال الموت من الحياة؟ هل يجب علينا أن نختفي بوجود الموت؟

### 1.2. سرديات الموت المتخيل ودلالاته

يبدأ المدخل الذي يوطئ للسرد الروائي بافتتاحية فجائية بعبارة "في اليوم التالي لم يمت أحد" في هذا المطلع تصور خيالي لحقيقة تتعارض تماما مع حلقة الحياة في تحقيق توازن العالم، والذي سيكشف التداعيات المتنوعة التي تصيب مختلف القطاعات، والمزالق التي يتهاوى إليها هذا البلد المتوهم بقوله: «ولكن ما سيحل بنا هو أسوأ الكوابيس التي يمكن أن يكون قد حلم بها كائن بشري» (ساراماغو:، 2005، صفحة 26) يوضح تنظيرا ماذا لو وضع الموت حدا لدوره وتوقف، حينها يصبح الحلم رعبا لم نشاهد أسوأ منه «لأن كل شيء سيكون مباحا إذا كانت الكائنات البشرية لا تموت» (ساراماغو:، 2005، صفحة 31) هنا تظهر فائدة الموت في سلسلة العالم ودوران الزمن

حين يطرح العديد من الأسئلة عبر شخوص القصة داعيا القارئ إلى التفكير في دور الدين والسلطة ومعنى الفلسفة والحقيقة ببراعة الكتابة عبر القراءة المتأنية تمسح لنا ضبابية الرؤية.

تنطلق قضية النص من وسائل الإعلام بصورتها المعروفة لدينا في نشر خبر "الموت المتوقف" حين تحدثنا الأخبار أن الهيئات الصحية والمؤسسات السلطوية لم تسجل أي حالة وفاة في مجتمع لبلاد ما تحكمها عائلة ملكية شرفيا ويتولى البرلمان والطاقم الحكومي تسيير زمام الدولة خلخل كيانها، بشائعة انقطاع الموت، التي تطورت وتبلورت إلى تقرير رسمي وواقعة معممة على كل المحتضرين في البلاد الذين بقوا عالقين في الحياة، حتى الملكة التي شاع خبر لحظاتها الأخيرة عادت من أرقى سلم الاحتضار؛ ولم يقتصر الأمر على الملكة وحسب بل تجسد انقطاع الموت في الكثير من الحالات الميؤوس منها التي عادت تعيش آلامها بأنفاس متثاقلة، وأجساد هرمة. تصاعدت الأحداث على هذا النحو المثير وحدث استنفار عام وظهرت أشياء غريبة كرفع سيدة أرملة العلم على شرفة منزلها للاحتفال بحياة الخلود وبعد ساعات أصبح هذا الفعل الغريب ضروري يقلده الجميع.

صور اختفاء الموت العديد من المفاهيم، فماذا لو كان الموت ليس إجبارياً، وما مقاومته إلا إسقاط لحتميته، هنا يتم التجسد الفعلي لما طمح إليه الإنسان "الحياة الأزلية"، أحدث هذا اصطداما بين الطموح والواقع الكابوسي؛ فانزلق سيل الاستقرار في السياسة، وتكشفت مهابة الكنيسة، وتهاوت المشافي، وأفلست الشركات، وانهارت أخلاقيات المجتمع، بهذه التداعيات بنى النص نسقه السردي على رمزية البقاء التي راودت الفرد منذ ميلاده، بداية من قصة الخلود مع آدم إلى يومنا، أوضح لنا كيف يصبح الحلم مقيتا إذا ما تجسد حقيقة.

هكذا على طول القصة جاءت الكثير من الأسئلة حول عمق مفهوم الموت، حين صرح الخطاب في أحد الحوارات أن «الموت أفضل من هذا المصير» (ساراماغو:، 2005، صفحة 30) صار ما كان أسوء، أفضل من النزاع الأبدي في البقاء إلى الأبد على حافة الحياة. يمتاز بالسؤال دائما «هل للرب سلطة على الموت» (ساراماغو:، 2005، صفحة 30) ثم يرجح بقوله: «فربما يكون الموت قد انسحب بأمر من الرب» (ساراماغو:، 2005، صفحة 33)؛ هنا يوجه سؤالا مربكا للقارئ يشركه داخل حواراته، يخلخل إيمانه، ينبش في دواخله، ليجعله يفكر، بعد هذا يذكرنا بأن لا ننسى وجود الموت في خضم كل هذه التناقضات «فدائما ومذ كانت الدنيا هي الدنيا، كانت هناك ساعة ومكان لموت أحدنا» (ساراماغو:، 2005، صفحة 34) كأنه يسخر منا، فكيف لنا أن نحلم بانقطاع أهم عنصر في مواصلة الحياة على هذه الأرض. يتلفظ النص في أحد المواضع «أن الموت لن يتركنا ندخل» (ساراماغو:، 2005، صفحة 35)؛ هنا نسائل أنفسنا: هل نتوقع يوما بأن لا يقبل بنا الموت، ألاّ يرغب في أرواحنا، وكأن الوضع نوع من الجنون حين يصرح في سرده «تحمل التعساء الذين أبقاهم الموت في هذا الجانب» (ساراماغو:، 2005، صفحة 45) إشارة منه لدور المنية على نفسية العالقين في غم المابين. ويواصل بعدها في تحليل الوضع من خلال استدراج مخيلتنا بوصفه الموت اختفى، توقف، انقطع، أضرب عن مهامه كيف يعيش الشخص على مهاوي الزمن والوضع فمثلا قصة الأشخاص المصابين برصاصة قاتلة في بلاد لا موت فيها يسألنا: «كيف يمكن الإبقاء على حياة الجزأين المنفصلين في تلك الحالات التي تبقى فيها المعدة في جانب والأمعاء في جانب آخر» (ساراماغو:، 2005، صفحة 63) كيف لشخص أن يحيا في قطعتين أن تنقسم روحه إلى نصفين، بهذا يقدم لنا طبقة الخلود الذي يصبح فيه الموت صعب المنال.

بالتعبير الحرفي يسخر هذا النسق الروائي من حلم البشرية، من مخيلاتهم الساذجة نحو حياة سعيدة فوق الأرض على طول المدى؛ حياة لا تعرف انقطاع، مستمرة، مستمدة إلى ما لانهاية، تشهد الميلاد فقط، فيصرح واصفا هذه الفكرة بقوله: «اللهفة الساذجة إلى حياة الخلود التي تسكن القلب البشري منذ الأزل، فأين سينتهي كل هذا» (ساراماغو:، 2005، صفحة 63) فأي تصور جنوني سينتهي إليه الخيال، هنا سندرك جدية الموقف.

حضور بارز للقارئ في ذهنية الراوي تجعل منه شريكا مجسدا في حواراته وأطروحاته حين بسط العديد من وجهات نظره كقوله «إنها حياة وحيدة، رائعة، دون الخوف اليومي من صرير مقص باركا، إنه الخلود في الوطن الذي منحنا الوجود، الخلود بمنجى من المخاوف الماورائية، ومجانا للجميع، دون مغلف مختوم بالشمع يفتح في لحظة الموت، أنت إلى الفردوس، وأنت إلى المطهر، وأنت إلى الجحيم، في هذا المفترق» (ساراماغو:، 2005، صفحة 16) فمنذ بدأت الآدمية كان هذا حلم الخليقة والسعادة المنشودة وهذا ما أظهره سرديا في إنجازه حين طرح أهم الأسئلة الوجودية: إذ تحقق ذاك الممنوع المرغوب، هل يبقى مرغوبا فيه حقا؟

تتمظهر فكرة الموت في سردية النص حسب المفهوم اليوناني: "الموت الجيد" حين يتحدث عن الحالات العالقة تحتاج إلى زفرة وينتهي أمرها لتحقيق راحتها فيقول: «لا يمكن لأشد أشكال الموت الرحيم أن تكون بمثل هذه السهولة والعذوبة» (ساراماغو:، 2005، صفحة 68) تلك السهولة التي يتحصلون عليها في الأراضي الحدودية المجاورة، القتل الرحيم يخص المعذبون بالأمراض المزمنة والحالات الميؤوسة من شفائها وتشمل حتى الذين رفضوا العلاج لحالاتهم بحكم اجتماعي أو ديني، وعبر هذه الحالات يوضح كيف للفرد أن يختار الموت بمحض إرادته وقدرته الفيزيائية على اتخاذ موقف حاسم لختم حياته، وهذا ما حدث في قصة الوالد الهرم الذي طلب من عائلته نقله للحدود من أجل أن يحظى بموته «فالموتى صاروا يرغبون في الموت» (ساراماغو:، 2005، صفحة 71) عبر هذا يقر لنا الخطاب المتخيل بنعمة الموت والرغبة الجامحة عليه، وعاد يذكرنا بعد هذه الانكسارات بأنه «إذا لم نعد إلى الموت فلا مستقبل لنا» (ساراماغو:، 2005، صفحة 88) إذن فما الموت إلا خلاص للبشرية وليس فناءها.

بعد التتبع المتواصل للمتن السردي نلحظ أن الجزء الثاني من الرواية، يصور لنا الموت على هيئة آدمية الأنثوية بشاعرية يجسدها خياله، فبعد سبعة أشهر شداد على البلاد عادت موت التي أعلن خبرها عبر منصة الإعلام للتلفزيون الحكومي، رجعت إلى مهامها في ثوب من الهيبة تحمل برقبتها البنفسجية «هم الذين يعرفون أن الموت يستخدم خدمة البريد العام كمراسل لأغراضه المأتمية، وخلال أيام قليلة، سيتحول اللون البنفسجي إلى الأكثر مقتا بين الألوان كلها» (ساراماغو:، 2005، صفحة 129) إذ شاع على أنه دليل الحزن والشؤم في رسالة تحذير لزوالهم الوشيك، رجعت تستأنف عملها بصيغة بشرية مؤنثة، ليست مجرد اسم فقط بل أعطاها مؤهلات جسمانية حين يصفها التركيب النصي في العديد من المرات: «صورت موت نفسها التي هي الآن أمام أعيننا، جالسة على كرسي وملتفة بملاءتها، وملامح البلبلة الكاملة بادية على تضاريس وجهها العظمي» (ساراماغو:، 2005، صفحة 140) وبقوله: «إنها تنظر بريبة إلى المغلف البنفسجي» (ساراماغو:، 2005، صفحة 140) أكسبها أفعال إنسانية لشخص عادي يشغل حواسه، حيث وضفت أفعال العمل: جالسة، ملفتة، تنظر، تقلبه، حتى أنها تصدر صوتا: «تدمدم المنية لترددها بصوت عال، كتعبير حالم» (ساراماغو:، 2005، صفحة 140). فهل يمكن أن نستقبل موتنا بهذه الآدمية حتى أنه يجسدها في مقطع آخر: «تجلس محاطة بالكفن الكئيب الذي هو زيها التاريخي، وعلى رأسها قلنسوة، تفكر متأملة فيما حدث بينما عظام اصابعها، أو اصابعها العظيمة، تنقر فوق المنضدة» (ساراماغو:، 2005، صفحة 144)؛ يتحدث عن عراقتها عبر الزمن حين أبقت المنية على حضورها الأصيل، ويصفها: «لكن الحقيقة أن المنية وصلت إلى النهاية منهوكة، وبإماءة يدها اليمنى (....) ثم قاطعت بعد ذلك ذراعيها النحيلين على المنضدة وتركت رأسها يهوي عليهما، ليس من أجل أن تنام، لأن موت لا تنام (....) رفعت رأسها أمام محجريها الذاهلين والفارغين» (ساراماغو:، 2005، صفحة 144) لم تكن مجرد هيكل عظمي وفقط بل مجسم كباقي الأجسام البشرية، حواء تقوم بمشاق الحياة التي أوكلها القدر إليها فهي راعية القطيع البشري.

تتحول وظيفة الموت في الجزء المتبقي للرواية بشكل درامي، يفصل بشاعرية عن تاء التأنيث التي تحملها المنية فيكسبها سيمات تخرجها من عادتها الميتافيزيقية ويكسبها بهذا الواقع الحقيقي. ماذا لو أحبت موت شخص ما، وهنا كانت من حظ عازف الفيولونسيل بسيط

يعيش حياة عبثية بين نوتاته الموسيقية وأصوات آلاته التي تعزفها أصابعه يتنقل وحيدا من المسرح إلى البيت، ومن النوم إلى العمل، يعيش بصحبة كلبه يوميات متشابهة تنتبه موت لهذا الشخص بالذات عندما يرجع ظرفه في كل مرة ترسله إليه، مما يدعوها هذا الفعل للتنكر ومعرفة السبب، فتنبهر به بعد لقاءاتها المتكررة معه. عبر هذه القصة يُصور الموت على أنه امرأة شابة جذابة ومثيرة «فموت تبدوا جميلة جدا وشابة، في حوالي السادسة أو السابعة والثلاثين» (ساراماغو:، 2005، صفحة 191) ترتدي ما يناسب هذا الجيل. جاء في حوارها مع المنجل الذي تحمله «لو أنني أخبرتك بما أراه في هذه الشوارع (....) تقبلها» (ساراماغو:، 2005، الصفحات 192–193) فهي تتسوق لشراء ملابسها وتحضر الحفلات الموسيقية وتتجول في شوارع المدينة، لديها الاندفاع والرعشة واللهفة والفضول الذي يتوقعه المرء من أنثى عديمة الخبرة في الانجذاب نحو أمر ما، إن الموت حسب متخيل المتن السردي شيء ممتع، عذوبة زمنية نعيشها لثواني، انقضاء قدر لحياتنا فهو يدعو إلى محبة الموت، إلى تكوين صلاة شاعرية مرهفة مع فعل منيتنا، يوضح لنا جمالية هذا الانقضاء، هذا الحدث المهم البسيط الذي يتلبسنا في لحظة فارقة، يستنكر في نصه التجريد المرعب والمخيف الذي رسمته مخيلات النقاد والأدباء على الإطلاق، ينفي حتى قوتها العليا والخارقة غير الرحيمة ويذكر بهذا في العديد من المرات بداية من أحداث السرد عند توقف الموت وما انجر عنها حتى عودتها وما تكتبه في رسائلها «سيدي العزيز يؤسفني اخبارك أن حياتك ستنتهي» (ساراماغو:، 2005، صفحة 144) وأيضا «خادمتك المخلصة موت» (ساراماغو:، 2005، صفحة 129) ويضيف «تتأمل القطيع البشري بعطف» (ساراماغو:، 2005، صفحة 171) يوضح هنا أن ما الموت سوى رحمة لأمر لا ندركه، عطف، نجاة من بؤس، معزة، كرم، فهي لا ترف جفنيها اكراما لدورة حياتنا.

وفي نهاية هذا التركيب الروائي يُعرض لنا افتراض يُفتح فيه مجال التخيل بقوله «ودون أن تدرك ما الذي كان يحدث، هي التي لم تنم قط، أحست أن النعاس ينزل جفنيها ببطء، وفي اليوم التالي لم يمت أحد» (ساراماغو:، 2005، صفحة 220). إن استفهم أحدنا: هل عزة الموت لنا تكمن في قبض الأرواح؟ فإن هذا المقطع يجيب إن كانت محبة الموت تكمن في توقفها عن حصد الأرواح، فتخيل ما سيحدث إذا، ليس صدفة أن تكون نهاية العمل متفقة مع بدايته في إعادة طرح الجملة "في اليوم التالي لم يمت أحد"، فبعد موجة من القصص والفرضيات والطرح الفلسفي لمحبة الموت حسب توهمات هذا الخطاب الروائي المتخيل، أراد منا أن ندرك قناعاته انطلاقا من اسقاطات نبسطها على مجتمعاتنا، يحفر بهذا في مخيلتنا ليضعنا أمام صورة حقيقة للبؤس وللكارثة التي تترتب عن انقطاع الموت، فهل الحب لمخاوفنا هو غذاء لبناء فكر سليم خال من الرعب؟

## 2.2. تمثلات انقطاع الموت

### 1.2.2. التمثل الديني

يشكل الموت مرتكز الديانات المقدسة ودعامتها الأساسية في تثبيت دور الدين حول محور الحياة فمن «دون الموت لا وجود الاربعاء، ومن دون الانبعاث لا وجود للكنيسة» (ساراماغو:، 2005، صفحة 11). إن انقطاع المنية تدنيس لقداسة الأديان كافة وهذا ما تجلى عبر النص بتلفظه مصطلح مندوب الأديان جل الأحايين خلال طرح المشاكل المتوارية في غياب الموت، باعتبار الموت أمرا أساسيا للملكوت بقوله «هذا يعني القبول الواضح بأن الموت كان أساسا بالمطلق من أجل تحقيق ملكوت الرب» (ساراماغو:، 2005، صفحة 30)، مما يعني أن أي نقاش حول حياة بلا منية فهو تجذيف يقودنا للتكفير بملكوت الرب. يوضح النص بأن انتهاء الموت انقطاع للبعث وغياب لمعاني الشعائر والقوائم الروحية باعتبار الكنيسة «جهرا وعلانية، هي وسيلة العمل الوحيدة التي يمتلكها الرب على الأرض» (ساراماغو:، 2005، صفحة 31)، ففي النهاية هي الطريق التي تؤدي إلى ملكوته، ووجود الخلود تهديم لكل المقدسات

والمسلمات. إن غياب الموت حسب هذا النسق يجعل من كل التصرفات مباحة، فتنتزع فطرة الخوف من يوم الحساب، وتنتشر الدناسة والمساوئ، وتنحل الأخلاق، عبر هذا يمكننا أن نتساءل هل هذه مشيئة الرب كما يقول النص «هل للرب سلطة على الموت ... فربما يكون الموت قد انسحب بأمر من الرب، سنعرف حينه أسباب هذه المحنة، وحتى ذلك الحين سندخل الصلوات والمسابح في العمل ... أعني الصلوات، وليس المسابح بالطبع، وسوف نخرج مواكب إلى شوارع البلاد كافة مطالبين بالموت» (ساراماغو:، 2005، صفحة 33). فما كان هذا إلا حفرا عميقا في الجانب الإيماني لدى الفرد، يعزز به قداسة الفعل بمحض ارادته التامة أو مجرد خوف فطري ينبثق من دواخله رغم شيطانية النفس. وسعى هذا التركيب السردي لتوضيح بأن في مثل هكذا موقف على ممثلي الأديان أن يتحركوا لإيقاف الهيجان والهذيان البشري وهذا بتعزيز الأفعال كالصلاة، والتسبيح والتضرع، وزيادة صلاتهم بالرب أكثر قبل توغل الشكوك، وتشظي الإيمان فهو يقول «فالكنيسة لم تجد مخرجا سوى العودة إلى عدها المضجر لحياة المسبحة ومواصلة انتظار انقضاء الأزمة» (ساراماغو:، 2005، صفحة 80) فكانت الحسابات هي تعزيز الفعل والمواظبة عليه والمضي تائهين وراء الهلع الإيماني في ثبات الذات.

### 2.2.2. التمثل الاجتماعي

خلق انقطاع الموت داخل النص، العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية وتشكلت عبره معظم العادات المكتسبة من الوضع المزري، فغياب الموت تسبب في تدهور اجتماعي كبير وبالأخص على المستوى الأسري. فتشتت الكيان المتراص وتفتت في أرضية البلد، وظهرت تصرفات غريبة في حيزه، كأن تعلق أرملة علما وطنيا على شرفة بيتها ويعمم الفعل في كل الشرفات، وتنسخ المشهدية على واجهة كل البيوت، وأصبح المظهر مرتبط بالحياة، وكذا انتشار البطالة في العديد من المجالات بسبب ازدياد عدد السكان وسفر حافري القبور، وصانعي التوابيت للخارج بحثا عن عمل. هذا الوضع يقدم مسببات انقطاع الموت الذي يؤدي إلى ضائقة فردية وجماعية تقود إلى تصرفات لا أخلاقية؛ فمثلا يقدم لنا تحليلا لمشهدية كيف تتخلص أسرة من شيخها الهرم وصغيرها العليل وآراء الأقارب بالقرار المتخذ، مرسومة في هذا المقطع: «لقد مات حمي والطفل هذه الليلة، حملناهما إلى الجانب الآخر من الحدود، حيث مازال الموت يمارس نشاطه، فصرح الجار: لقد قتلتموهما، يمكن القول نعم بطريقة ما (...)، ويمكن القول لا بطريقة ما (...)، قبل متر من الحدود كانا حيين، وبعد متر صارا ميتين» (ساراماغو:، 2005، صفحة 44) يلخص هذا الحوار المذكور خرقا أخلاقيا وشرعيا وقانونيا، يتمثل في كيفية انعكاس اختفاء المنية على الحلات الإنسانية وقد تطور الوضع وتدهور إلى الهجرة غير الشرعية حين يقول «دفن هذا النوع الجديد من المهاجرين الاضطراريين، ولو أنهم يكتفون بالدفن، فلا بأس، ولكنهم قد يذهبون كذلك ليقتلوا، ليغتالوا، ليصفوا، ليطفئوا، لأنهم يجتازون الحدود في تلك اللحظة الدقيقة والمشؤومة...» (ساراماغو:، 2005، صفحة 63) وهذا شبيه بهجرة شبابنا نحو الحياة وراء الحدود عبر قوارب الموت يعكس برمزية ظاهرة اجتياز البلاد إلى بلاد أخرى من أجل الأفضل لمكان موعود في زمان مجهول.

وقد تسبب غياب الموت في ظهور ما يعرف بالمافيا، استغلوا الوضع، وامتهنوا تهريب الأجساد العليلة لتخليص أهلهم من أعباء الحمل وإعادة مرضاهم جثثا هامدة في الصناديق قصد الدفن، وكانت هذه العمليات تقام بسرية تامة عن الحكومة وفي خطة محكمة يقول في نصه: «ما تفعله المافيا بكل بساطة سوى اجتياز الحدود ودفن الموتى، ولكنها تتقاضى مقابل ذلك مبلغا طائلا وفارق آخر هو أنها تقوم بالدفن دون أي اهتمام بجمالية المكان» (ساراماغو:، 2005، صفحة 64) فقد كانت هذه المنظمات الاجرامية محترفة في مهنتها لمثل هكذا حيل باعثة للاختلال الاجتماعي.

### 3.2.2. التمثل المادي

تم إبراز التأثرات الاقتصادية بغياب الموت، على طول القصة التي تم تحليلها، وعجز المؤسسات على مواجهة هذه الظاهرة مما أدى إلى افلاسها وضياع مصداقيتها كشركات التأمين، وبيوت المسنين والمستشفيات فهناك قطاعات مهنية أصيبت بقلق جدي كالتجارة الجنائزية والنجارين، وحافري القبور «فقد جاءت أولى الشكاوى الرسمية من مؤسسات التجارية الجنائزية، فأربابها الذين جردوا بفظاظة من مادة تجارتهم الأولية بدأوا بحركة رفع الأيادي إلى الرؤوس التقليدية وهم يئنون شاكين من جوقة، ماذا سيحل بنا الأن (...) حيال كارثة الإفلاس الآتية» (ساراماغو:، 2005، صفحة 19) يبحثون عن مخرج لأسوأ ما سيحدث من نتائج دراماتيكية وفي خوف آخر صرح رئيس اتحاد شركات التأمين: «تهديد رهيب يقترب سيعرض للخطر وجود صناعاتنا»(ساراماغو:، 2005، صفحة 26) فيؤدي الأمر إلى إلغاء أقساط التأمين المرتفع، لانعدام أي نوع من التعويض الذي يقود الشركات للإفلاس، فالتوقعات كارثية، رهيبة، تتعدى مخيلة الهذيان المرتقبة ما قاد إلى اجتماع عاجل بحثا عن الحل فاجتمع «ممثلو مؤسسات المآتم، والدفن، وإحراق الجثث ونقلها، والخدمات المرتبطة بها» (ساراماغو:، 2005، صفحة 107) ليواجهوا تحديا مهنيا ضخما لحل جدي لكارثة اقتصادية متدهورة.

### 4.2.2. التمثل السياسي

تمثل الموت بشكل جلي داخل النظام السياسي، فكان لغيابه (انقطاعه) أثر سلبي على القرارات الصادرة ضمن هذه الدولة، التي توجهت كل أنظار ساكنيها لما سيقوله حكامها، وهذا ما أظهره النص. إذ سيطرت السلطة على الشعب لتسيطر على الوضع ومجابهة عدو وهمي، وأمام التصريحات الجريئة التي يقوم بها ممثلو الدولة وجدوا أنفسهم في احتكاك سلبي مع المؤسسات الدينية وكذا الاقتصادية والهياكل الاجتماعية، مما جعل الأمر حساسا بالنسبة للسلطة والتي وجدت نفسها في موضع حرج حيث يقول النص: «نطالب أيضا بأفضل اهتمام من جانب الحكومة للنظر في الواقع» (ساراماغو:، 2005، صفحة 20)باعتبارها العقل المفكر للبلد، وخلف هذه الضغوطات توصلت الحكومة لحل سري مع المافيا لتخلصها من الاضهار المتجسد؛ فأدى هذا لحدوث حرب باردة مع حكومات الحدود يقول: «أعلن أن القوات المسلحة ستتخذ على الفور مواقع لها على طول الحدود لتمنع مرور أي مواطن (...) فلم تكن الحكومة تنظر بعين سوء إلى خروج يخدم، في التحليل الأخير، مصلحة البلاد بقدر ما يساعد على تخفيض ضغط ديموغرافي» (ساراماغو:، 2005، صفحة 46) فهو يرى في عمق الأمر «أنه ليس من أهداف الحكومة الكبح الكامل لهذا النوع الجديد من الهجرة، وإنما توفير ارتياح جزئي لقلق حكومات البلدان ذات الحدود المشتركة، بما يكفي لتهدئة الشكاوي لبعض الوقت»(ساراماغو:، 2005، صفحة 46) وبتحليل للأمر نجد أن المافيا خدمت البلاد، رغم حدوث صراع مع البلدان المجاورة حماية لحدودها من الوفود المنكبة عليها.

هذا التفاقم سبب فوضى حول «اعلان الجمهوريين الحرب، لا أفهم ما الذي خطر في رأس هؤلاء الناس، قال الملك، فالبلاد في غارقة أرهب أزمة في تاريخها بينما هم يتكلمون عن تغيير النظام (...) ما يفعلونه هو استغلال الوضع لنشر ما يسمونه رؤيتهم للحكم» (ساراماغو:، 2005، صفحة 86) فانقطاع الموت عرى على نظام الحكم الذي تكشف أمام هذا العدو الوهمي فجعله يتخبط بقرارات صارمة ومأزقية في قيادة الجمهورية الملكية.

غياب الموت في أمة ما، كما صورها هذا المتن الروائي، أدى لوضع ديستوبي مس كل المجالات بداية من الهرم السلطوي حتى النظام الاجتماعي وما بينها شهد أزمات وحالات من الفوضى، خاصة ونحن نعلم أن ركيزة البلاد هو اقتصادها، فقد شوهت المنية بتوقفها القوانين السائدة وأدت إلى أوضاع وقرارات طارئة لمجابهة فكرة الخلود التي يحلم بها الفرد في حياته المعاكسة والكاسرة لقداسة الدين ونصوصه.

**خاتمة**

بقيت ثنائية الحياة والموت تؤرق مخيال الجنس البشري منذ القدم حتى الأدباء؛ حيث راح الكل يصوره على شاكلته ويبحث في أغواره مستفسرا عن براثين ماهيته وأسراره. فمنهم من صوره على أنه نجاة من الوقوع في الخطأ، وذهب أخرون إلى أن الموت هو تحرر من خلود النفس أو العقل من القيد الجسدي، أو هو تحرر من الخوف وشجاعة مواجهة المنية. في حين ذهب فريق آخر إلى القول أنّ الموت هو الانتقال إلى الحياة الأبدية والأزلية. وعلى الرغم من أن فكرة الموت لا نهائية، إلا أنها لم تفشل أبدًا في تطوير السرد، فقد ساهم استخدامه كأداة أدبية في بعث التأثيرات العاطفية، والتشويق، والغموض من أجل تشديد الحبكة أو إضافة وزن للدراما في النسق الروائي، وبالتالي رفع مكانته كأداة أدبية مهمة ولا غنى عنها. هذا وقد أثبت الخيال الأدبي قدرته العظيمة في كونه خط اتصال بين الموت والفكر الإنساني؛ إذ لفت انتباهنا مما سبق عرضه كيف سمحت الصور المتخيلة للموت والتي اعتمد عليها المؤلفون، من شرح نطاق واسع من الأسئلة والمعضلات الوجودية. وهذا ما أكد على أن الرواية تلهم خيال القراء وتدعوهم إلى إعادة تقييم الاستفهامات الجوهرية في هذا الوجود، لأن حقيقة الموت تؤثر بعمق على فهمنا –وتجاربنا–لمعنى الحياة.

قد يوفق الأديب أو يتردد عند تناوله لمسألة الموت، ولكن ستبقى علاقة الموت بالأدب، علاقة ضرورية وعميقة. فليس من الضروري أن ينير الأدب ويلم بجميع الجوانب المتعلقة بالموت، بل يكفي أن يوفر الخلفية التي على أساسها ترى حقيقة الموت وبالتالي حقيقة الحياة. ومن الأدباء الذين تفننوا في معالجة الموت كموضوع أدبي، الروائي العظيم خوزيه ساراماغو والذي استطاع بتحفته "انقطاعات الموت" أن يطرح صورة متناقضة لمتخيل الموت حين جسده في جدلية مبتكرة استفتحها بسؤال بسيط: ماذا سيحدث إذا توقف الناس في مكان ما عن الموت؟ جعلنا ساراماغو عبر متنه نتساءل بدورنا كذلك: ماذا لو تحقق الخلود الأبدي هل ستبقي الحياة مرغوبة فيها حقا...؟ أو سندخل في رحلة جديدة للبحث على المنية وتفعيلها مجددا...؟

بعد الفرح الأولي الذي أعقب غياب الموت وانقطاعه، وظهور إمكانية الحياة الأبدية، يتسلل القلق ويغزو المجتمع نوع من الصراع الذي لم تشهد البشرية مثيلا له؛ فانقطاع الموت لا يؤدي فقط لزعزعة الأسس الفلسفية والدينية، بل إنها تؤثر على جميع الهياكل الاجتماعية والمؤسسات الاقتصادية للدولة وتخل بتوازن الحياة بشكل مرعب. سوق النص الموت للمتلقي على أنه شيء ممتع وعذب فدعا إلى حبه والتعلق به في إشارة إلى التناقض مع صورة الموت التي رسخت في مخيلة الأدباء والفلاسفة والنقاد. وهي رسالة ساخرة من أولئك الذين يبحثون على الخلود الأبدي إلى حد رسم صورة الموت على أنها رحمة ومعزة للنجاة من الألم والبؤس والمرض ولذلك فإن المنية عبارة عن كرم رحيم مرغوب به بشدة. استطاع هذا الخطاب الروائي من جعل فكرة حب الموت كطوق نجاة نحو تقبل قوانين الطبيعة وأقدار البشر فجعلها تسليما بضرورة اكتمال الدورة واستمرار الحياة؛ حيث صور غياب الموت كغياب أحد الجنسين من الحياة فغياب المرأة من حياة الرجل أو غياب الرجل من حياة المرأة سيترك فراغا رهيبا وإضطرابا عارما في نظام الكون وأسسه.

يمكننا القول بأن سعي الإنسان لاكتشاف طبيعة الموت أو محاولته للخوض في معرفة ماهيته، ستقوده دائما لنقطة البداية، هذا لأن الموت يقيم دائما خارج نطاق القدرة البشرية على الفهم باعتباره أحد أسرار الخالق، شأنه في ذلك شأن الروح، فوجود الموت منوط دائما وأبدا بوجود هذه الأخيرة. لذا ستظل معرفة ماهية الموت تشكل إشكالا حادا ومزعجا لبني البشر منذ بدء الخلق حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

**قائمة المراجع**


1. بلعلىآمنة، (2011)، المتخيل في الرواية الجزائرية من التماثل إلى المختلف، الجزائر، دار الأمل تيزي وزو،ط2.
2. الإدريسي يوسف، (2005)، الخيال والمتخيل في الفلسفة والنقد الحديثين، الدار البيضاء، المغرب، مطبعة النجاح، ط1.
3. بلعلى آمنة، (1982)، المتخيل: نقلا عن جابر عصفور، مفهوم الشعر (دراسة في التراث النقدي)، القاهرة، مصر،المركز العربي للثقافة والعلوم.
4. خمري حسين، (2002)، مقاربات في الرواية: فضاء المتخيل، الجزائر، منشورات الاختلاف.
5. بوزفور أحمد، (2012)، المتخيل العجائبي والغربة (قراءة في التجربة القصصية)، لندن، مجلة الكلمة، ع8.
6. فضل صلاح،(1996)، أشكال التخيل من فتات الأدب والنقد، مصر، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1.
7. وولف فرجينيا، (2009)، الأمواج، تر: عطا عبد الوهاب،بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1.
8. محمود مصطفى، (2017)، تجليات الموت بين الفلسفة والدين، الجزائر، دار المجدد للنشر والتوزيع.
9. تولستوي ليف، (2014)، موت إيفان إيليتش، تر: مها جمّال، القاهرة، سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
10. سالم جورج، (1962)، في المنفى، بيروت، لبنان، منشورات عويدات، ط1.
11. الشرقاوي أدهم، (2016)، نبض، الكويت،دار كلمات للنشر والتوزيع، ط6.
12. ساراماغو خوزيه، (2005)، انقطاعات الموت، تر: صالح علماني، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2.